المحاضرة رقم (07)

الأدب السياسي في العصر الأموي

مفتتح

تكشف المحاضرة الحالية عن علاقة الأدب بالسياسة في العصر الأموي، وذلك بالتركيز على مفردة السلطة في منظوريها: الذاتي؛ وهو الشاعر باعتباره سلطة تأخذ شرعيتها من حضورها التاريخي، والموضوعي؛ وهو الشعر بوصفه سلطة تأخذ شرعيتها من حضورها الوجداني في، وقبل ذلك، سنقوم بحصر كل من الملك والقبيلة، في حيز واحد، باعتبار أن كليهما نزاع نحو النظام، التراتبية، والالتزام، من أجل تبين فعالية الأدب السياسي في العصر الأموي، وفق المنظور المضاعف المقترح آنفا.

1- سلطة الشعر

قديما عرف الشعر سلطته من خلال حضوره التاريخي المعروف بتوصيفات: ضمير القبيلة، صوتها، ذاكرتها، غير أن الشعر في العصر الأموي أخذ طابعه السياسي بإزاحة سلطة الشعر من إطارها المفرد (طرب، رهب، غضب، ركب) إلى إطارها الجمعي: الملك، المذهب، إذ عكست الأغراض الشعرية المعروفة، مثل: المديح، الهجاء، الغزل، الفخر، الرثاء، سلطة الشعر[1]، بقدر ما عكست التوجه السياسي الذي حركته مبادئ أو أصوات الجماعة الصادر منها، وهي: الملك، المذهب.

فإغداق الأمويين المال والنفوذ والقوة على مواليهم أخرج معارضيهم من حلبة المنافسة كالقرشيين، وعلى رأسهم العلويين والزبيريين، وبلغ بهم الأمر إلى درجة إغضائهم الطرف عن مغامرات عمر بن أبي ربيعة الذي تغزل بفاطمة ابنة الخليفة

1)- «كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كلب، وزاد قوم: وجرير إذا غضب». ينظر: ابن رشيق، ***العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده***، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، دمشق- سوريا، ط5، 1401هـ -1981م، 1/ 95.

الأموي عبد الملك بن مروان[2]، التي ستكون فيما بعد زوجة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، وهذا مقطع من قصيدته: (الخفيف)

كدتُ يومَ الرّحيلِ أقْضي حياتي لَيْتَني متُّ قَبْلَ يوْم الرّحيلِ
لاَ أطيقُ الكلامَ مِنْ شِدَّةِ الوَجْـ ـدِ، وَدَمْعي يسيلُ كُلَّ مَسيلِ
ذَرَفَتْ عَيْنُها، فَفَاضَتْ دُموعي وَكِلانا يَلْقى بِلُبِّ أصيلِ
لَوْ خَلَتْ خُلّتي، أصَبْتُ نَوالاً، أوْ حَديثًا يَشْفي مَعَ التّنويلِ
وَلَقَدْ قالَت الحَبيبَةُ: لَوْلا كَثْرَةُ النّاسِ لَجُدْتُ بالتَّقْبيلِ[3]

كذلك تجاوزهم غير المشروط عن إساءات الأخطل التي طالت جميع فئات العرب أشرافا وأخلاطا، أو جماعات وأفرادا، بما في ذلك الأنصار أنفسهم الذين لم يسلموا من هجائه المقذع[4]، توسيعا لصورة الملك، وذلك في قوله: (الكامل)

ذَهبَتْ قُرَيْشٌ بِالسَّماحَةِ وَالنَّدَى وَاللّؤْمُ تَحْتَ عَمائِمِ الأنْصَارِ
فَدَعُوا المَكَارِمَ لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا وَخُذوا مَسَاحِيكُمْ بَني النَّجّارِ
إنَّ الفَوَارِسَ يَعْرِفُونَ ظُهُورَكُمْ أوْلادَ كُلِّ مُسَفَّحٍ أكّارِ
وَإذا نَسَبْتَ ابْنَ الفَريعَةِ خِلْتَهُ كَالجَحْشِ بَيْنَ حِمارَةٍ وَحِمارِ[5]

فضلا عن تغذية المشاحنات الشعرية التي تقوي العصبية: المديح، الهجاء، الفخر، الحماسة، والنقائض الشعرية بصفة خاصة، تشتيتا لوعي الجماعات الرافضة وتعزيزا لسطوة الملك، فيسهل انقيادهم وتحريكهم، في مقابل تضييقهم الخناق على مخالفيهم؛ فالسلطة لا تؤمن بالحيادية، بل بالموافقة أو المخالفة، فكل من ليس معها فهو ضدها.

هذا كله يعكس الفهم العميق لسلطة الشعر وجدواها في مجتمع يؤمن بهيمنة الكلمة، ومدى فاعليتها في التوجيه: الدعوة إلى السلام أو الحرب، الدفاع عن أو ضد، فلم لا تكون

2)- عمر بن أبي ربيعة، ***ديوانه***، قدم له ووضع فهارسه وشرح: فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، 1416هـ - 1996م، ص17.
3)- ***م.ن***، ص117- 118.
- الوجد: شدة الحب والحزن. يلقى بلبّ أصيل: يداري أمره بعقل راجح. لو خلت: لو صادفتها وحيدة. النّوال: العطاء.
4)- الأصفهاني، ***الأغاني***، 16/ 292.
- الوجد: شدة الحب والحزن. يلقى بلبّ أصيل: يداري أمره بعقل راجح. لو خلت: لو صادفتها وحيدة. النّوال: العطاء.
5)- الأخطل، ***ديوانه***، شرحه وصنّف قوافيه وقدّم له: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط2، 1414هـ - 1994م، ص11.
- النّدى: الكرم. المساحي: (ج) مسحاة، وهي أداة القشر والجرف. المسفّح من عمل عملا لا يجدي عليه. الأكّار: الحرّاث. الفريعة: القملة.

إذن الدعوة إلى الملك أو المذهب، والدفاع عنه، والانتصار له، مع هذا ضد ذاك، أو العكس.

2- شعر السلطة

لا تقدم الأغراض الشعرية: المدح السياسي، النقائض، والمعارضات، بيانا سياسيا لجماعة سياسية أكثر مما تعرض تاريخها السياسي، طالما تصور انتقال الأمويين من الهامش؛ كونهم جماعة رافضة طالبت بدم عثمان في مواجهة نظام متهاون، ثم تدخل في خصومة، فنزاع، فحروب أفضت إلى افتكاك الحكم لصالحها، وحلولها في المركز كونها جماعة حاكمة، أو حالات القلق والتوجس والفوضى التي زرعتها المذاهب الرافضة الأخرى، في سبيل نشر أفكارها السياسية بواسطة العنف بالنسبة للخوارج، أو المداهنة السياسية بالنسبة للشيعة، هذا كله أفرز شعرا سياسيا تلبس بطبيعة المرجعية التي توجهه، فقد اتصف بالشرعية التي نستشفها من خلال ادعائه: الحزم، والحكمة، بالنسبة للشعر الأموي الذي مثله شعراء عدة لعل أشهرهم: عبد الله بن الزبير، عدي بن الرقاع، والأخطل، لكنه يصور حقيقة الصراع السياسي الذي خاضه الأمويون من أجل بلوغ الحكم، أو الحفاظ عليه، من ذلك قول عديّ بن الرقاع مادحا الخليفة عبد الملك بن مروان في حربه لمصعب بن الزبير، ومفاخرا بنصرتهم له: (المتقارب)

لَعَمْري لَقَدْ أصْحَرَتْ خَيْلُنا بأَكْنافِ دِجْلَةَ لِلْمُصْعَبِ
يَهُزُّونَ كُلَّ طَويلِ القَنَا ةِ مُلْتَئِمِ النَّصْلِ وَالثَّعْلَبِ
فَقَدَّمَنا واضِحٌ وَجْهُهُ كَريمُ الضَّرائِبِ وَالمَنْصِبِ
أعينَ بِنَا وَنُصِرْنا بِهِ وَمَنْ يَنْصُرِ اللهُ لَمْ يُغْلَبِ(6)

أو الرفض والمعارضة والمقاومة من قبل الزبيريين، ولعل أبرز من يمثل مذهبهم هو عبيد الله بن قيس بن الرقيات الذي زاد حقده عليهم بسبب قضاء طائفة من أهل بيته في موقعة الحرّة، بالإضافة إلى عدد كبير من الصحابة والتابعين، وهي موقعة ثار فيها أهل

6)- عدي بن الرقاع العاملي، ***ديوانه***، جمع وشرح ودراسة: حسن محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان،ط1، 1410هـ - 1990م، ص59- 60.
- أصحرت: برزت. الثّعلب: رأس الرّمح. الضّرائب: الطّباع.

المدينة على الأمويين بسبب أحداث كربلاء وما تبعها من مقتل الحسين، فكان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقا مخلصا، وهو اعتناق يشوبه الحقد على بني أمية، والرغبة الشديدة في أن ينقضّ حكمهم انقضاضا[7]، وأفضل ما يوجز آراءه في هذه القضية قصيدته الهمزية التي مدح فيها مصعب بن الزبير، والصحابة، وقريش بوصفها عمود الخلافة، بينما ذمّ الأمويين، وعلى رأسهم الخليفة يزيد بن معاوية، لاستباحتهم المدينة والحرم المكي، وقتلهم الحسين في موقعة كربلاء، وهذا مطلعها: (الخفيف)

أقفرتْ بعدَ عَبدِ شمسٍ كَداءُ فَكُدَيٌّ فَالرُّكْنُ فَالبَطْحَاءُ[8]

كما اتسم بالتقية من خلال تصنعه، الزهد، والمسالمة في سبيل تحقيق الأهداف والغايات السياسية، بالنسبة لشعر الشيعة، ولعل أبرز من يمثله الشاعر كثير عزة الذي اعتنق مذهب الكيسانية الذي نادى به المختار الثقفي لصالح محمد بن الحنفية، وادعى فيه بفكرة التناسخ وأن قبس النبوة لا يزال يتنقل في علي وأبنائه، وأن ابن الحنفية هو المهدي المنتظر، من ذلك غضبه على ابن الزبير حينما حبس ابن الحنفية في سجن عارم بمكة على خلفية الدعوة التي أعلنها الثقفي باسمه: (الطويل)

تُخَبُّرُ مَنْ لاقَيْتَ بأنَّكَ عائذٌ بَلِ العائِذُ المظْلومُ في سجْن عارِمِ
وَصِيُّ النَّبِيِّ المصْطَفَى وابنُ عَمِّهِ وَفَكَّاكُ أغْلالٍ وَقاضي مَغارِمِ
أبَى فَهْوَ لا يَشْري هُدًى بِضلالَةٍ وَلا يَتّقي في اللهِ لَوْمَةَ لائِمِ
وَنَحْنُ بِحَمْدِ اللهِ نَتْلُو كِتَابَهُ حُلولاً بِهذا الخَيْفِ خَيْفِ المَحارِمِ
بِحَيْثُ الحَمامُ آمِنُ الرَّوْعِ ساكِنٌ وَحَيْثُ العَدُوُّ كالصَّديق المُسالِمِ
فَما وَرَقُ الدّنيا بِباقٍ لأهلِهِ ولا شِدَّةُ البَلْوَى بِضَرْبَةِ لازِمِ[9]

7)- شوقي ضيف، ***تاريخ الأدب العربي***، 2/ 295.

8)- إبراهيم عبد الرحمن، ***عبيد الله بن قيس الرقيات حياته وشعره***، سلسلة دراسات في التراث العربي- 8، (د.ن)، (د.ط)، (د.ت)، ص179.

- كداء وكديّ: جبلان بمكة. الركن: ركن البيت الحرام. البطحاء: حيث كان ينزل أشراف مكة حول البيت في الجاهلية.

9)- كثير عزة، ***ديوانه***، جمعه وشرحه: إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت- لبنان، (د.ط)، 1391هـ - 1971م، ص224-225.

- خيف المحارم: الحرم ومناسكه. ورق الدنيا: رونقها وزهرتها. ضربة لازم: الثابت.

والكميت بن زيد الذي تميزت هاشمياته بصدق العاطفة وبراعة الحجاج والاستدلال في بيان حق الهاشميين الشرعي في الخلافة، من ذلك قوله متحدثا عن اغتصاب الأمويين لهذا الحق: (الطويل)

بِخاتِمِكُمْ غَصْبًا تَجوزُ أمُورُهُمْ فَلَمْ أرَ غَصْبًا مِثْلَهُ يَتغَصَّبُ
وجْدنا لكُمْ في آلِ حاميمَ آيةً تأوَّلها منّا تقيٌّ ومُعْرِبُ
وفي غيْرِها آيًا وآيًا تتابَعَتْ لكُمْ نَصَبٌ فيها لذي الشَّكِّ مُنْصِبُ
وقالوا: ورِثْناها أبانا وأمَّنا وما ورَّثَتْهُمْ ذاك أمٌّ ولا أبُ
ولكنْ مواريثُ ابنِ آمِنةَ الذي بهِ دانَ شرقيٌّ لكُمْ ومُغرِّبُ
يقولونَ:لمْ يُورَثْ وَلَوْلا تُراثُهُ لَقَدْ شَرِكَتْ فيه بَكيلٌ وأرْحَبُ(10)

فيما تميز بالعنف والغوغائية من خلال تسلحه بـ: الاندفاع والحماسة بالنسبة لشعر الخوارج، وعلى رأسهم: عمران بن حطان، الطرماح بن حكيم، وقطري بن الفجاءة، وهو أيضا يصور حقيقة الصراع السياسي الذي خاضته أحزاب المعارضة، أو تعرضت له من أجل تمرير برامجها، على أنهم تمنوا الموت في كل حرب خاضوها، أو كلمة قالوها، أو قصيدة أشدوها، أو موقفا وقفوه بين يدي ملك أو قاض أو جندي، استثقالا لحياة الذل والهوان، واستعجالا لحياة العز والكرامة، من ذلك قول قطري بن الفجاءة مشجعا نفسه على الثبات في أرض المعركة للفوز بأحد الثوابين: الانتصار أو الشهادة: (الوافر)

أقولُ لها وقدْ طارتْ شُعاعًا منَ الأبْطالِ وَيْحَكِ لَنْ تَراعي
فَإنَّكِ لَوْ سُئِلْتِ بَقاءَ يَوْمٍ عَلَى الأجَلِ الذي لَكِ لَمْ تُطاعي
فَصَبْرًا في مَجال المَوْت صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الخُلود بِمُسْتَطاعِ(11)

على أنه قد جاوز صفة الدفاع عن الحق المشروع إلى الإرهاب بالنسبة للخوارج، فضلا عن أنه لم يفض إلى نتيجة؛ لأن ذهنية تلك الفترة كانت اعتقادية أكثر منها عقلانية،

10)- الكميت بن زيد الأسدي، ***ديوانه***، جمع وشرح وتحقيق: محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت- لبنان، ط1، 2000م، ص521-526.
- بخاتمكم: خاتم النبي صلى الله عليه وسلم وهو خاتم الخلافة. آل: هم بنو هاشم. والآية هي: {لا أسألكم عليه أجرا إلا المودّة في القربى}، سورة الشورى، الآية23. نصب منصب: متعب للشكّاك. ورثناها: الخلافة.ابن آمنة: رسول الله صلى الله عليه وسلم. بكيل وهمدان: عشيرتان من همذان.
11)- إحسان عبّاس، ***شعر الخوارج***، دار الثقافة، بيروت- لبنان، ط2، 1974م، ص108.
- طارت النّفس شعاعا: تفرّقت وانتشرت من الخوف.

أو دينية طبيعية أكثر من كونها مدنية سياسية، فقدمت اعتبارات الاستقرار السياسي على غيره.